سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء الثاني والعشرون: سورة يس (٤١-٤٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
أسأل الله بمنّه وكرمه كما تفضّل علينا بالاجتماع حول كتابه أن يتقبّل منّا هذا الاجتماع، ويتقبّل منّا ومن المسلمين أعمالهم، ويجعل هذه الأيام المباركات سببًا لزيادة الحسنات وإزالة السيئات اللهم آمين.

نتدارس اليوم آيات من هذه السورة العظيمة سورة يس، وهي سورة ابتدأت بالحروف المقطعة إشارة إلى أن موضوعوها يدور حول أمهات أصول الدين من إثبات الرسالة ومعجزة القرآن، وإخبارًا عن صفات ربّ العالمين.
وفي السورة أخبار عن صفات الأنبياء وعن علم الله والتوحيد الذي من أجله خُلق الخلق والاستدلال عليه، وكيف الحال بعد هذه الحياة وكيف أن الله يحشر الخلق ويُعرضون عليه فيثاب أهل الخير بالخير وأهل الشر بما يستحقون.
فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمّى (قلب القرآن)؛ لأن من تقسيماتها تتشعب شرايين القرآن كما يقول ابن عاشور، فجمعت كل المواضيع التي بوحثت ونوقشت في سور القرآن من إثبات الرسالة ومن معجزة القرآن ومن صفات الأنبياء إلى آخر هذه الأمور.
وأكثر ما في السورة بارز: إبراز صحّة الإيمان بالحشر، فالحشر في هذه السورة مكرر بصور عدة كما هو واضح جدًا في آخرها.
فالمقصود أن هذه السورة تحتاج كثير من التدبّر والتأمّل؛ لأنّها تُعتبر من السور غير الطويلة وتحتوي على مفاهيم عظيمة وعميقة أتت بأيسر عبارة، فتحفظ وراء الآية معاني عظيمة.
على كل حال كما هو معلوم في صدْر السورة خبر عن القرآن، وخبر عن المكذبين له، وخبر عن أصحاب القرية وكيف كان صاحبهم يدعوهم حتى قيل له **{قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}**.
ومن هنا أتى الاستدلال على التوحيد وعلى البعث وعلى لقاء الله عز وجل، وأن هذا كله حقّ وأنّ الخلق في إعراض عن هذا الحقّ.
فقال الله عز وجل بعدما عرض لنا قصة هؤلاء أصحاب القرية، وكيف كانت الآيات حولهم، وكيف كان ينبههم ويبيّن لهم، وكيف كفروا وكيف أهلكهم الله، فالخطاب الآن لكل أحد يصلح له الخطاب: **{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}** وبيان هذا أن الله سبحانه وتعالى جعل أمام الخلق آيات يرونها منها إهلاك الأمم وأنها لا ترجع، وأنهم لابد أن يكونوا جميعًا لدينا محضرون يوم القيامة.
ثم عرض علينا مجموعة آيات..

المجموعة الأولى من الآيات: **{ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا –أي في الأرض– جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ}** هذه الأرض أمامكم انظروها كيف تكون ميتة ما فيها أي زرع يحييها الله ويُخرج منها الحب وأنتم تأكلوا منها، وليس هذا فقط أيضا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون.

{لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ} يعني يأكلوا من خراج هذه الأرض، **{ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ}** يعني هذه الـ (ما) نافية، لم تعمله أيديهم.

لكنهم ينقصهم الشكر **{أَفَلَا يَشْكُرُونَ}**.

ثم ينزه سبحانه وتعالى نفسه أن يشابهه أحد في فعله فقال: **{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}**.

فهذه آيات عظيمة وآيات قريبة تامة الوضوح، فالخلق حولهم ما يرونه ويسبّب لهم تنزيه الله، فهو سبحانه وتعالى خلق الأزواج كلها سواء كانت من نبات الأرض أو من أنفسهم، ففي كلٍّ تنويع، فهذا الذكر وهذه الأنثى، وهذا الطويل وهذا القصير، وهذا صاحب الخلق الحسن وهذا أقلّ منه، في كل شيء أزواج متقابلة، هذا الغني وهذا الفقير، هذا الكريم وهذا البخيل.

وهذا التقابل مما يلفت نظر العاقل كيف أن حتى الأخلاق متقابلات! بل حتى أخلاق الإنسان نفسه فيها من المتقابلات ما فيها.

على كل حال كانت هذه آية وهي ما جعله الله عز وجل في الأرض وكيف أحياها، فالذي أحياها من المؤكد أنه يحيي الموتى، وكما أحيا الأرض بعد موتها يحيي الخلق بعد موتهم، هذه كانت الآية الأولى: وآية لهم، يعني كان المفروض ينتفعون منها.

ثم تأتينا آية أخرى: **{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ}**، هذا الليل آية من يقف فيه لا يتصور أن هذا يزول أبدًا، لا يتصور أن هذه الظلمة الحالكة في الليل تتحول وتتغير، بل من نظر لها ونظر لشدة السواد ما يتصوّر أنها تنقشع.

فمعناه أنّ هذه المظاهر الدقيقة التي تدلّ على نظام الخلق التي يراها المتبصّر تدلّ على أنّ كلّ شيء يمكن أن يتغيّر، فالأرض الميتة تصبح حية كما تبيّن لنا في الآية السابقة، الميتة تصبح حية، إذن الموتى يحييهم الله.

أحيا الأرض، وأخرج الحب والشجر، كلّ هذا يدلّ على عظمة الله، وسلخ الليل من النهار هذا يدلّ على عظمة الله، ولذلك في الآية السابقة قلنا: سبحان، يعني ننزهه عما لا يليق به، نعظمه عن أن نشرك به أحدًا، وتبيّن لنا هذا الأمر من آيات كثيرة في كتاب الله أنّ من فكّر في خلق الله لابد أن ينزّه الله أن يكون له مثيل أو شبيه.

فهنا يقال انظروا لليل كيف نسلخ منه النهار، والسلخ كما هو معلوم إزالة الجلد عن حيوانه، وهذا كأنه تمثيل لصورة خروج الليل من الحياة ودخول النهار، فالآية خروج الليل ودخول النهار كالانسلاخ، أين الآية؟ الليل آية لنا، متى؟ في حال إزالة غشاء نور النهار عنه فيبقى عليهم الليل.

{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} بمعنى أن الليل في حالة إزالة غشاء نور النهار فيبقى عليهم الليل، شُبّه النهار بجلد الشاه يغطي ما تحته كما يغطي النهار ظلمة الليل، النهار كأنه يغطي ظلمة الليل في الصباح، كشْف النهار وإزالته شُبّه بسلخ الجلد، فصار الليل كأنه هو جسم الحيوان المسلوخ، يعني الظلمة كأنها داخل الحيوان والجلد كأنّه النهار.

شُبّه زوال النهار بهذا الجلد المسلوخ وتبقى الظلمة، فالظلمة كأنها هي الأصل، كأن الظلمة حشو الدنيا، وهذا قبل أن يخلق الله الأنوار كانت ظلام، كانت الموجودات كلها في ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيرة، قبل أن يخلق هذه النجوم والشمس، فيأتي النهار يغطي هذه الظلمة فنبقى نحن تحته في نور ثم يزول هذا النور فيأتي الظلام، الذي يرى الظلام يظنّ أنّه لن ينكشف أبدًا، ثم يأتي النور مرة أخرى يغطي الأرض، ثم لما ينسلخ يرى الإنسان عَودًا على بدء، يرى الإنسان هذه الظلمة كأنها إشارة للموت.

الشاهد أن الله عز وجل جعل من الآيات العظيمات التي نعيشها زوال نور النهار عن الأفق، فيخلف هذا ظلمة الليل: **{فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}**، وأتت كلمة: "ينسلخ" **{اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ}** فالليل كأنه الحيوان والنهار جلده فيُسلخ، فينفصل عنه فيبقى الناس في ظلمة، الظلمة آية عجيبة، الذي يكون فيها لا يظنها تتغير، فلما يأتي النهار كأن الحياة أتت، فالليل والظلمة كأنه الموت، والنهار كأنه الحياة وكل يوم أنت في هذه الحياة، يأتي الليل فكأنه يأتي الموت والناس فيه يموتون الموتة الصغرى، ثم يأتي النهار فيدبّون في الأرض فكأنها الحياة، الخطاب للمنكرين: فكيف تنكرون أن الله يحيي الموتى؟! أليس هو الذي يحيي الأرض بعد موتها؟ وأليس هو الذي يأتي بالنور بعد الظلمة ويسلخ هذا النهار من الليل ثم يعيده؟!

إذن معناه أنّ هذه آية عظيمة من آيات الله، كان الواجب كثرة التفكّر فيها، لما انسلخ النهار وبقيت الظلمة ينظرها الإنسان كأنها لا تعود.

ثم يقول الله عز وجل: **{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}**، يعني ها هي ستأتي فيأتي معها النور، كأنه يأتي معها الحياة من جديد، وهي كما كررنا كثيرًا تدلّ هذه الشمس على ولادة الخلق، ثم على قوتهم وشبابهم، ثم على موتهم الذي يأتي من وراءه الليل، ثم يعودون وهي تجري وتسير سريعًا، وسيرها هذا السريع إلى مستقر، يعني إلى قرار.

وهذا القرار والله أعلم به ينتهي العالم إن كان قُصد هذا أو الأقرب أنها تجري حتى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئتِ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة ولا تزال كذلك طالعة من مطلعها إلى أن تُؤمَر فتطلع من مغربها.

هذا والله أعلم المقصود جريانها لمستقرّها، والمعنيان لا يتعارضان تجري لمستقرّها فتسجد فتعود فتسجد فتعود، ثم يأتي الوقت الذي يكون مستقرّها نهاية العالم.

وهذه آية عظيمة يفهمها أهل الإيمان أنّ هذه الشمس مخلوقة من مخلوقات الله تدلّ على عظمة الله وعلى جلال الله وعلى كمال الله.

وانتهت الآية بقوله: **{ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}**.

إذن جريان الشمس وسير الكواكب وانسلاخ النهار من الليل كلّ هذا من تقدير العزيز العليم، والعلاقة واضحة فالعزة تناسب سير هذه الكواكب لأن من معاني العزة القهر، فله عزة القهر والسلطان سبحانه وتعالى، فهو يسيّرها ويجعلها تسير بنظام لا تخرج عنه.

وأيضًا اسم العليم مناسب جدًا هنا لأن هذا النظام الذي تسير عليه نظام بديع دقيق يظهر فيه آثار علم الله.
إذن هكذا تبيّن لنا أنّ هذه الآيات الليل والنهار سواء انسلاخ النهار من الليل أو جريان الشمس للمستقرّ، كل هذا تقدير يظهر فيه آثار اسمي العزيز واسم العليم؛ لأنّ جريانها البديع يدلّ على علم الله، وعدم خروجها عن هذا يدلّ على عزّة الله عزّ وجلّ، وهكذا كلّ آيات الله ترى فيها أدلّة على كمال الله.

ثم يأتينا القمر ويقول الله عزّ وجلّ في حقّ القمر واصفًا تنقّله واختلافه –وهذا أمر عجيب– لأنه يشبه الشمس في صورة الولادة والشباب والموت لكن بالشهر والشمس باليوم، **{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ}** والتقدير يُقصد به جعْل الأشياء بقدر ونظام محكم، وفي كلمة التقدير يعني تحديد المقدار، فنحن نقول هذه تقدير الأوقات، تقدير الكميات، فالله قدّر للشمس والقمر نظام يسيرون فيه وبذلك حصلت حساب الفصول السنوية والأشهر والأيام والليالي، فالقمر قدر الله سيره، يسير منازل، هذه المنازل يتنقّل فيها بسيره منزلة بعد الأخرى.
{حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} كأننا نقول ابتدأ ضوؤه وأخذ في الازدياد ليلة فليلة، ثم ابتدر فأصبح في شبابه ثم تناقص تناقص وأيضًا في أول ليلة، إذن عاد كالعرجون القديم المقصود الضوء في شكله، والليلة التي يكون فيها صورته يشبه العرجون القديم مباشرة ثاني يوم يأتي المحاق فلا يُرى، يعني يكون عرجون قديم ثم يأتي المحاق ثم يولد من جديد، فهو يكون كالعرجون القديم في أول المحاق وبعد المحاق، في أول الشهر مرة أخرى يأتي في هذه الصورة، فهذه منازل القمر التي يراها كل أحد، يولد يبتدر يموت، يعود كالعرجون القديم، ثم يحيه الله من جديد ويولد من جديد وتبقى الآية مستمرة أمام من أراد الحق.

ثم يأتينا الخبر الأكيد الذي يدلّ على عظمة الله **{لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}** فهذه آية وهذه آية تدلّ على انفراد الله عزّ وجلّ بالخلق والتدبير، وعلى أنّه مستحقّ للتعظيم، فانظروا إلى قدرة الله كيف سيّر الشمس، كيف سيّر القمر، هذه الأفعال العظيمة لابد أن تدلّ على عظمة الله.
ولما تنظر للشمس وتنظر للقمر ومطالعهم تكاد تقول أنها قريبة من بعض، لكن الحقيقة لا الشمس تقترب من القمر أو تدركه ولا القمر يقترب منها.
{لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا} يعني كأن هذا هو القانون الذي وُضعت عليه، فلا تلحق أبدًا بالقمر ولا يمكن أن تصطدم خلافًا لما يبدو من قُرب المنازل، لأنّه في الحقيقة هذه لا تدرك هذه وهذه لا تدرك هذه ولا تصطدم.
الليل والنهار والشمس والقمر، كلها مع أنها آية في نفسها فإنّ نظام الليل والنهار وفي نظام الشمس والقمر منافع للناس تعود عليهم، يلزمهم من ورائها الشكر.
إذن **{لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}** أي الليل لا يمكنه أن يسبق النهار فإنّ انسلاخ النهار على الليل أمْر مسخّر لا قِبل لليل أن يتخلّف عنه، لما يأتي النهار فيغطّي الليل ويبقى أهل الأرض في نور، الليل لا يستطيع أن يتخلّف فيظهر.

{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} إشارة إلى أنّ الله عزّ وجلّ خلق الأفلاك لسير هذه الكواكب، وأنّ ما عليه الخلق من ظنّهم أنّ سيرها يحدّد للأرض أو لأهلها شيء من أقدارهم أو من أحوالهم أو من سعدهم أو من نحوسهم، فهذا إنما هو من آثار اجتيال الشياطين، وفي الحديث القدسي ((**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**))[1] فإنّ هذه الأفلاك التي خلقها الله وقدرها وجعل لها حركة آية على الله وليست شريك مع الله! فمن رأى هذه الأفلاك وهذا السير ورأى هذا السبح في الهواء، رأى أنّ هذا النظام لا يمكن أن يكون كلّ فلك يسبح في فلكه لا يخرج ولا يتعدى ولا يصطدم ولا يحصل له أي شيء إلا يكون عليهم عزيز عليم!

وليس لهؤلاء المسخرين الذين هم آية للعالمين أن يكون لهم قدرة على شيء في تصريف حياة الخلق.

إذن مررنا الآن بآيةٍ وآية، قال الله عزّ وجلّ بعدما أخبر عن قصة أصحاب القرية وأمرهم أن يتدبّروا في حال إهلاك الأقوام: **{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}** أتتنا آيتين **{وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا}**، **{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}** هذه آيتين؛ وعرفنا كيف تدلّ على عظمة الله.

نأتي للآية الثالثة: **{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}**، وهذه الآية تحتاج إلى كثير من التأمّل لمعرفة معناها، خصوصًا أننا نجد في التفسير معاني لا يُتفق عليها.

أولًا ما هي الآية؟

{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} فكان هناك إشكال حول كلمتين: **{حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ}** هذا الفلك مشحون، فالآية هي الفلك وأيضًا: **{وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ}** من مثل الفلك **{مَا يَرْكَبُونَ}** فأولًا نناقش الآية ثم نرى الإشكال..

الآية هنا هو تسيير الخلق في البحر وكيف حصلت هذه القدرة وكيف تمكّن الناس من أن يسافرون ويركبون وينقلون، فهو فلك مشحون، ونرى مكان هذه الآية بالنسبة للآيتين السابقتين.

الآية أنهم ركبوا في الفلك المشحون، والآيتان السابقتان آية في الأرض، وآية في السماء، إذن هذه الآية التي معنا في البحر، وكغيرها من الآيات تجمع بين العبرة والمنة.

إذن الأرض أنبت الله فيها النبات بعد أن كانت ميتة، والسماء جعل النهار يغطي الليل ثم يذهب فيموت ويأتي الليل، والشمس تولد وتكون في رابعة النهار وتموت، والقمر يولد هلالًا ثم يصبح بدرًا ثم يعود كالعرجون القديم، كلها آيات تدلّ على عظمة الله وعلى قدرته على خلقه.

---

[1] رواه مسلم في صحيحه

وهنا الفلك كيف هي آية عظيمة كيف تسخّر الفلك أن تسير على الماء ويسخّر الماء لتطفو عليه دون أن يغرقها، وكلما نسمع عن الفلك نتذكّر الآية العظيمة التي اشتهرت حتى كأنها كالمشاهدة عند الناس وهي آية إلهام نوح عليه السلام صُنْع السفينة، ليحمل الناس الذين آمنوا ويحمل من كل أنواع الحيوان زوجين لكي تُحفظ الأنواع من الهلاك والاضمحلال وهذا كله بأمر الله.

وهذا في حادثة الطوفان المعلومة، أين الآية؟ هذا البحر وهذه السفينة من أهم إشارات وأدلة حفظ الله للخلق فإنّ كل شيء مسخّر بأمر الله خصوصًا أننا نسمع **{وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}**.

إذن معنى ذلك انظر لهذه الآية وكيف طفت على البحر وكيف أبقاها الله عز وجل ولو شاء أغرقهم.

فإنّ من ركب البحر المفروض يزيد إيمانه ويقينه بالله وعظمته سبحانه وتعالى، واليوم التاريخ الحديث فيه من العبر ما فيه ما يدلّ على أن الخلق لما يُمدّ لهم فيعطيهم الله عزّ وجلّ، هم يعرضون عن عطيّة الله، فيأخذون منافعهم وينسون ربهم، فالله أعطاهم العطية ليتدبّرون ويتأمّلون ويتفكّرون ويشكرون، وهم يأخذونها لهواهم بل يتحدّون ربهم!

وفي السفينة التي اشتهرت بين الناس في هذا العصر الحديث، وتجرّأ أحدهم في حفل تدشينها أن يقول أن هذه السفينة لا تغرق ولا يستطيع إغراقها الله! تعالى الله عما يقولون، وكانت سفينة ضخمة ولها أوصافها ولها اسمها وجعلوا لها تاريخ ثم تسير في البحر مملؤة من الخلق مليئة بالفجور والعصيان فتصطدم بما لا يرون فتغرق منكسة رأسها إلى أسفل شاهدة بقدرة الله وعظمة الله وسفه الإنسان! فمثل هذه الآية العظيمة لابد أن تبقى منا على بال، يعني نربط بين تحدّيهم لرب العالمين وبين آية الله عز وجل في هذه الفلك، وكيف أنه هو الذي يمسكها، وهو الذي ينجيها، وهو الذي يحفظها، وإن شاء أغرقها، ولذا كما تناقشنا في اللقاء السابق أنّ كل ظاهرة كونية لها تفسير دقيق في كتاب الله، والمقصود بالدقيق ليس التفصيل إنما الدقيق في التعبير.

فلو أتينا نجيب على صغير يسأل كيف هذه السفينة لا تغرق؟ الجواب: أن الله عز وجل سخّر هذا البحر لهذه السفينة، فجعل قوة دفع الماء بِقَدْر قوة ثقل السفينة، فكلما كانت السفينة أثقل كلما سخّر الله الماء يدفعها أكثر.

وإذا قيل لماذا هذه الأرض بهذه الصورة تسقط الأشياء إلى الأسفل والأشياء ثابتة ولا تتحرك رغم أنها كرة في الهواء؟ نقول أن الله يمسك السماوات والأرض، هذا من آثار أنه ممسك للسماوات والأرض.

فهذا التعريف الدقيق للظواهر، ولا يمنع أن تستخدم التفسيرات العلمية في مكانها على أنها من أفعال الله وعلى أنها من تسخير الله، لكن لا نضع كلمة بدل كلمة، بدل أن نقول أنّ الله يُجري هذه الفلك ويمسكها أن تغرق ويسخّر البحر نقول هذه نظرية فلان ونظرية علان! هذا من جهة النظر إلى الفلك، نرى الآن الآية ما معناها..

سأقرأ تفسير الشيخ السعدي وفيه خبر عن المعنى المشهور عند المفسرين ثم ما فتح الله عز وجل عليه في معناها:

قال: "أي ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود؛ لأنه المنعم بالنعم، الصارف للنقم، الذي من جملة نعمه" يعني من الأدلة على أن الله يستحق الألوهية أنه منعم بالنعم صارف لنقم، ومن النقم الغرق ومن النعم أن تكون هذه الفلك مشحونة بما يرغب فيه الناس.

"الذي من جملة نعمه **{أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}** قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم" الذرية المراد بذلك الآباء، يعني كأن الخطاب لأهل مكة.

"**{وَخَلَقْنَا لَهُمْ}** الموجودين من بعدهم **{مِنْ مِثْلِهِ}** أي مثل ذلك الفلك أي جنسه **{مَا يَرْكَبُونَ}** **به**" فكيف تُفهم الآية على هذا التفسير؟ أنا حملنا آباءكم في الفلك المشحون، وخلقنا لكم من مثل هذا الفلك المشحون ما تركبون.

"فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن لان النعمة عليهم نعمه على الذرية.

يقول وهذا الموضع من أشكل المواضع عليه في التفسير!" ما تبين له وجهة كلام المفسرين.

"فإنّ ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء مما لا يُعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء" وهذا أول شيء نفكّر فيه، هل هذه الكلمة تُفسّر في القرآن بهذه الطريقة؟ فقال أنه لا يُعهد في القرآن أن يقال عن الآباء ذرية.

"بل فيها من الإيهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يأباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده" هذا رأيه أنه لو قلنا ان الذرية هي الآباء خرجنا الكلام عن موضعه.

" وثَمَّ احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية بني آدم" يعني كأنه يُقال حملنا ذريتهم في أصلاب آبائهم الذين ركبوا السفينة، فحُفظت الذرية بذلك.

" ولكن ينقض هذا المعنى قوله: **{وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}** إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن" يعني خلقنا لهم من مثله ما يركبون كأنه يقول مثل هذه السفينة على من؟ مرة أخرى يصبح تكرارًا، حلمنا هؤلاء في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، أصبح تكرار في حقهم.

رأي آخر:

"فإن أريد بقوله: **{وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}** الإبل، التي هي سفن البرّ، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: **{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَاهم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}**" كأنه يقول ما علاقة الذرية؟ لماذا توجد الذرية، حملناكم في الفلك المشحون وخلقنا لكم من مثله ما تركبون.

"فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال" يعني وخلقنا لهم سيعود على الذرية المحمولة في الفلك المشحون، ماذا يركبون؟ قيل الإبل، فتشوش المعنى.

"فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن" يعني هذه الفلك مشهورة معلومة الناس كلهم يعرفونها ويعرفوا قصتها.

"لما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية" يقصد الشيخ أن هذه كلها المصنوعات إنما حمل الله بها ذرية هؤلاء المخاطبين.

"نبَّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: **{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** أي: المملوء ركبانا وأمتعة. فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها من الغرق، ولهذا نبّههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم مع قدرته على ذلك" إذن كأنّ الشيخ يرى أن **{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}** ذريتهم يعني ذرية هؤلاء المخاطبين بالقرآن، **{فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** الذي هو معروف يسير في البحر مشحون بالبضائع والناس، فالمحمول هم الذرية، في الزمن الذي يستطيعون فيه هذه الصناعة وتزدهر.

وأيضًا خلق الله **{مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}** فهذه الأدوات التي يطيرون بها أو يسيرون بها في البر كلها من خلقه، فالله عز وجل خلق الصنعة والصانع، فكانت هذه آية عظيمة للخلق تدلّ على نعم الرب.

ولو شاء الله مع أنهم ركبوها وتمكّنوا منها وتعلموها، لكن إن شاء أغرقهم، وفي القصة المشهورة اليوم في التاريخ فلا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة ولا يزيل عنهم المشقة.

"ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: **{وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ}** أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، **{وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ}** مما هم فيه.

{إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} حيث لم نغرقهم، لطفا بهم، وتمتيعا لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم".

فالمقصود أن هذه آية نراها اليوم كيف أن من آيات الله أن حمل الذرية ونفعها وخلق لها ما لا تعلم.

"**{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ}** أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات **{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأسا، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: **{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}**".

بدليل أنهم معرضين عن هذه الآيات التي سمعناها عن آية الإنبات وعن آية الزوجين المختلفين وعن آية انسلاخ النهار من الليل وعلى آية حمل الذرية في الفلك المشحون، ولو جاءتهم أي آية هذه حالهم.

"وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بيانا" أعظم بيان هي آيات الله عزّ وجلّ.

هذا شأن مهم جدًا:

"وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم، في دينهم ودنياهم".

إذن هذه الآيات التي هي بمثابة أدلة تدل على طريق الله وفي نفس الوقت الناس ينتفعون منها ويستفيدون.

أهل الأهواء ينتفعون من هذه الآيات بما يأتي لهواهم، وأهل الإيمان تزيدهم إيمان ويبارك الله لهم ويجعلها أسبابًا تنفعهم.

على كل حال الذي يظهر أن تفسير الشيخ رحمه الله أقرب للصواب، والله أعلم بالصواب.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى اللقاء بفضل الله..